

أكرم الضيف وتأهيل الغريب في القرون الغابرة قد توارثه العرب المحدثون كخليفة شريفة يذلون دونها أنفسهم ونفيسهم ويتفاخرون بها مرددين قول الشاعر:

الله يعلمُ أنه ما سرّني شيء كطارقة الضيوف التزل
ما زلتُ بالترحيب حتى خلّني ضيفاً له والضيف ربّ المتزل

*

قال الراوي: دعيتني واجبات مهنتي في اوسط شهر آب سنة ١٨٩٣ الى بلدة تدعى زاوية المعصرة شمالي «قربة» في انحاء راس الدار (Cap-Bon). فعقدت فيها جلسة لاستنطاق بعض الجناة ثم اتخذت لي دليلاً من عرب الناحية نحو الساعة الثانية بعد الظهر ليسير بي الى «نابل» قبل ورود الليل. وما كنت لأبشر سيراً كهذا في فصل القيظ لولا اني رأيت اديم السماء قد غطته السحب فاطفت ودائق الحرّ

فلما صرنا على مسافة بعض اميال من «قربة» اكفهر الجو وومض البرق الحاطف للابصار وعصفت الريح فتار من الارض عجاج كحل العيون بذراته ولم يلبث قصيف الرعد أن دوى ومزق اديم الزرقاء واجرى الامطار كالسيل. المدرار فصارت ثيابي بعد قليل كهصير الماء. الا ان رفيقي صاح بي قائلاً:

«بارك الله فيك سيدي فان سفرك ليمون. دونك المطر غسال البيدر. ولكن لاسيل الى مواصلة السير فهياً بنا نحل في هذا الدوّار على شمالنا في جانب الطريق» فاذننت لقول دليلي وركضت جوادي الى حيث اشار. فلما اقتربنا من المكان هرت في وجهنا الكلاب وكادت تهجم علينا واذا برجل من اهل الدوّار خرج فتقدم الينا. فابتدره رفيقي بالسلام وقال:

بشراك يا شيخ احمد هوذا السيد ب. وعبدك اتيناك طالبين ضيافتك فنسكن عندك ريثما يأذن الله في ركود الريح وهدو العاصفة

- بارك الله فيك وفي السيد القادم

مترنا رحب لمن زاره نحن سواء فيه والطارق

قال هذا وامسك المطايا لتترجل عنها ثم سلم الخيل لولد وادخلنا داره وهم يدعون الدار جربة (قربي gourbi) وكانت مفروشةً بحصير من الحلفاء فاجلسنا في صحنها واكرم مشواتنا ثم خرج بعد حين مستأذناً بالذهاب طالباً ان ننتظره

مرّت علينا ساعة واذا بصاحب الدار عاد وبين يديه جَفَنَةٌ من الصُّكُنْكَسِ وفي اثره غلمان يحملون القصاع فيها إدام من المرق الاحمر والبندورة والفلفل واللحم غير النضيج. وكان ينبعث من هذه الاطعمة رائحة كريهة من الزيت القنيم والسمن السنيخ غثت منها نفسي وجشأت فما استطعت ان اذوق منها لماظاً فشقّ على ضيفي امتناعي عن الاكل وكان عدّ ذلك اهانة لولا اعتذاري باني لم اعتد هذه المآكل فقام على الأثر واتاني بعد برهة من الزمان بعددٍ من البيض النمبرشت

فبعد البسملة باشرتُ بنقف بيضةٍ لاحتسأها ثم فكرت في الملح فطلبت منه قبصةً وأنا لا ادري ما تكمنه لي الاقدار فخرج الشيخ احمد الى مضارب الدوّار فلم يجد ملحاً عند اهله. فعرفت فضولي وتندمتُ على طلبي. ثم طيبت قلب الشيخ قائلاً: انني عنه لفي غنى. لكنّه لم يُصخ الى كلامي بل اوماً بيده الى غلام هناك فاقترّب منه شابٌ في مقتبل العمر رشيق القد جميل الهيئة حسن البزّة وهو مشتملٌ باحرام فنظر اليه الشيخ نظرة مفتخر وقال لنا: « هذا عليّ ابني » ثم التفت الى الفتى قائلاً: « ابني عليّ كاني بالعاصفة قد سكنت ثائرتها فاركب مسرعاً مهرنا الخضراء واذهب الى اقرب دوّار منّا وانتنا بملح »

فتصدّيتُ للشيخ ما امكنتني وحلفتُ بأيمان محرّجة اني لا اذوق البيض اذا خطا عليّ ابنةُ خطوةٍ خارج الدوّار. لكنّ الشيخ احمد لم يكثر لقولي فساد الغلام وبقيتُ في الجربة وحدي مع الدليل وضيفي

فمضى علينا نصف ساعة ثم ساعة ثم ساعتان قبل ان نستبشر بعودة الغلام. فانفرط بيننا سمط الكلام ثم ساد سكوت اشبه بسكوت القبور وبدت علي ملامح الشيخ احمد امارات الجزع والاضطراب. وكان الليل في اثناء ذلك ضرب على الارض اطناباً وهدأت كل الحركات فلم نكد نسمع ركزاً اللهمّ إلا صوت قطرات من المطر كانت تكف فوق الأحساء.

وكانت اتعاب النهار مع قلة الأكل قد هدّت قواي فشعرتُ بالنعاس قد اثقل اجفاني وكاد يحدّر اعضائي وكذلك رفيقي اوشك النوم يكتحل عيونه. ونحن كذلك اذ سمعنا من كشب صوتاً منكرًا اطار النوم عن العيان واقشعرت له الابدان

وكان الصوت صراخاً فاجعاً مستطيلاً طرحته امرأة في بطن الليل الداجي ثم اردفت الكلاب من بعده فصخبت صخباً شديداً وملأت الحيّ نبجاً
فوثبنا ثلاثتنا الى الجربة لئلا نرى ما الخبر واذا باصوات البكاء والعيويل تتوالى فتتقرب الينا وفي جملتها ولولة النساء لا تحمد من حين الى آخر حتى يسمع هتاف اقطع من الصراخ الاول كان يجمل له الدم في العروق
وكنّا نحن على باب الجربة ينظر بعضنا الى البعض نظر المتحير الدهش لا ندري ما الداعي لهذه اصوات الويل والشبور اذ تراءى لنا نور مشعل ضئيل فيتنا في ضوءه جنازة يحملها نفر وكان على الجنازة جثة هامدة لم نلبث ان عرفناها واذا هي جثة عليّ ذلك الشاب ذي البهاء والجمال الذي راقنا منظره في اصيل النهار
وكانت علة موته انه لما عاد من الدوار حيث ارسله ابوه لطلب الملح عثرت رجل فرسه في دجى الليل فوقع الراكب من ظهرها وصدم راسه بصخرة في الطريق فمات موتاً وحياً فلما استطال اهله عودته ارسلوا قوماً يستطلعون اخباره فوجدوه صريعاً بين الصخور

وبينا كان حملة النعش يحطون بجسم الميت كان الشيخ احمد ينظر الى ابنه نظرة اب فجع بغلظة اكباده ومظنة آماله وانا سبب موت الغلام على غير اختياري بل رغماً مني كنت بقربه واقفاً واجماً لا ابدي حاسكاً كأن صاعقة انقضت عليّ ففلجت جسمي اما الدليل رفيقي فكان يسرح بصره بين الوالد المسكين وبينى لا يدري ما يقول او يفعل

فمدّ الميت في زاوية من الجربة وكان فوه مفتحاً كأنه يريد التكلم فاشار الشيخ الى النسوة ان: اكفن عن العويل فسكتن للحال وخرجن مطرقات صامتات عندئذ دعانا ضيفنا ودعا معنا كل الحضور لندخل المنزل فجلسنا حوله لا ننبس بكلمة وكان كل منا يجيل في فكره حوادث ذلك النهار المشؤم وكانت كل اصوات الخارج قد هدأت ثانية الا قطرات ماء المطر كانت تسمع بقبقتها عند سقوطها في اجوان الماء تحسب صوتها في هدوء الليل الدامس كصوت الموت
وبقينا كذلك مدة غائصين في بحر النعم اذ لحنا الشيخ احمد فرأيناه مسح وجهه وحيته يديه قائلاً: «الله اكبر انه وحده ازلي لا يموت» ثم التفت الى احد الحضور

فسأله: وهل أتى بالملح. فقام رهط من الجلوس وُدسوا جثة الميت فوجدوا لفاقة فيها الملح. فوجه الشيخ الكلام نحوي قائلاً: « سيدي ان ولدي اتاك بالملح فقم بلا تكلف وشرفتني باكل طعامي ». ثم اراد ان ينشطنا على الاكل فاخذ دُبلة من الكسكس وادخلها فاهُ وقال للجلوس: « هياً باسم الله يا اسيادي كلوا »

فلما رأيتُ هذا الجلد وسمعت هذا الكلام عمل في منظر الشيخ عملاً لا يوصف فاندفعت ابكي وعلا صوت نحبي. ثم خرجت من الدوّار وحدي رغماً عن العاصفة واهوال الليل وقفر المكان لا اعي. فقام الشيخ مع الحضور ليوقفوني ويردوني الى المنزل الا اني لم اعرهم سمعي ولم انكص على الاعقاب لتوسلاتهم والحاحهم بل سرتُ هائماً في وجهي الى ما شاء الله

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

للاب هنري لامنس اليسوعي (تتمّة)

٦

اثبتنا في ما سبق ان القديس مارون عاش وتوفي في القورسيّة. وفيها دُفن ايضاً ليس بعيداً عن مكان وفاته. وذلك واضح لمن اعتبر قول توادوريطس. وقد ادّعى بنا من جهة أخرى مجال البحث في الفصل السابق الى ان نجعل دير القديس مارون قريباً من افامية اعني على مسافة نحو مئة كيلومتر جنوبياً من قورس. وكأني بالقارى يستغرب الامر ويجد في تعيين موقع هذا الدير خارجاً عن القورسيّة بعض التناقض ويشك في صحّة النتائج التي استنتجناها

كلّاً لا تناقض في ما قلنا. وان يكن في الامر مشكل. وانما المشكل اعظم واقوى اذا ما جعلنا موقع دير القديس مارون في جهات حمص اعلم انه لا يُعرف نصٌ واحد يذكر صريحاً ان جسم القديس مارون دُفن في افامية. بل في قول توادوريطس ما هو عكس ذلك. وانما يثبت التقليد ان راس الناسك القديس بعد خراب ديرهِ القريب من افامية نُقل الى لبنان